رابعاً : خطاب الشعب (خطاب الشكوى والتمرد)

كثرت فى الفكر المصرى القديم وخاصة فى عصور الاضطراب وفترات الانتقال صور خطاب الشكوى الشعبية من سوء الأوضاع وتقلب الأحوال والآلام والتعاسة التى يعانيها عامة الشعب . وعرف هذا النوع من الخطاب لدى علماء التاريخ والآثار بأدب الشكوى . والأمثلة عليه كثيرة فهناك شكاوى الفلاح أو القروى الفصيح وشكاوى اليائس ، ونفرتى ، وخع خبر رع سنب وغيرها (٩٢) .

وإن كانت شكاوى القروى الفصيح (٩٣) قد لاقت اهتماماً واسعاً من كل دارسى الفكر والأدب والتاريخ المصرى القديم نظراً لأنها تعبر خير تعبير عن الأوضاع المصرية فى ذلك العصر الذى كتبت فيه ، وتعكس صور المعاناة التى عاناها الناس فى تلك الفترة ومدى الصراع الذى اعتمل فى نفوس المصريين بين الحفاظ على الهوية الحضارية المتمثلة فى تقديس الماعت (الحق والعدل) وبين سيادة الاضطراب والفوضى واستغلال السلطة من قبل بعض الولاة وحكام الأقاليم ومساعديهم .

كما أن هذا النص وأمثاله من خطاب الشكوى في الفكر المصري يعبر في اعماقه عن جوانب لا يكاد الدارسون يهتمون بها رغم أنها جوانب ذات أهمية قصوى بالنسبة لرعاية الأحكام المطلقة التي اعتدنا أن نطلقها على الحضارة المصرية ونظامها السياسي .

ومن هذه الجوانب :

أولا : أن هذه الشكاوى وخاصة شكاوى الفرد الفصيح توضح بما لا يدع مجالا للشك أن المصري القديم لم يكن مجرد ترس في آلة الدولة أو عبدا عند الفرعون بل كان فردا له من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات . وأن حقوقه كانت معروفة جيدا ومحمية بسوجب القانون والحق الذي أمن به الجميع حكاما ومحكومين والمتمثل في تلك الكلمة الجامعة (الماعت) .

ثانيا : أن هذه الشكاوى توضح بجلاء تام أن هناك من كان يستمع إليها من الحكام ، وهناك من كان يحقق فيها ويرفع الظلم عن كاهل المظلوم . بل إن شكوى الفرد الفصيح وقصتها تبين

أن الحاكم قد اقتص من الظالم بأن أخذ كل مـــا كـــان يملكـــه وأعطاه لذلك الفروى الفصيح ولم يكتف بأن رد إليه ما ســرق منه . وهذا يعنى أنه قد عوضه عما أصابه من ألم نتيجة هـذا الاعتداء الصارخ من هذا الموظف المنكبر المتغطرس علـــى حق هذا الإنسان العادى المستضعف . فالعدل إذن لـــم يكـــن مجرد اعتقاد توضحه الأقوال المحفوظة التى يرددها الكتـــاب ويتشدق بها الملك ، بل كان حقيقة واقعة يحرص على إقامتـــه الجميع حكاما ومحكومين .

ثالثا : إن حق النقد والشكوى كان مكفولا للمواطن فى مصر القديمة سواء فى عصـــور الاســـتقرار أو فـــى عصـــور الانحـــلال والانهيار ؛ فالقارئ لنصائح بتاح حوتب إلى ابنه وهى تعـــود إلى النصف الثانى من الألف الثالثة قبل الميلاد (أى إلى عصر الدولة القديمة) يجد أن بتاح يطالب ابنه بأن يحسن الاســـتماع إلى شكوى المظلوم وأن يتركه يتحدث حتى يفرغ تماما مـــن شكواه ؛ فها هو يقول له " إذا كنت ممن يقدم لـــهم الشـــكاوى فكن شفيقا حينما تسمع كلام المتظلم ، ولا تسئ معاملته إلى أن

نغسل بطنه ، وإلى أن يقول ما قد جاء من أجله . وأن المنظلم يحب كثيراً أن يهز الإنسان رأسه إلى كلامه إلى أن ينتهى مما جاء من أجله . . وأن مجلساً حسناً يسر القلب " (٩٤) .

أما القارئ لشكاوى الفروى الفصيح وهى المثل على الشكوى فى عصر الانتقال فيجد أن جرأته قد بلغت حداً كبيراً ، وأن شكاواه قد سجلت ووصلت إلى الملك . وتحققت له العدالة التى كان ينشدها بالفعل .

إذاً لقد كان المصرى القديم قادراً على الكلام والنقد أى أنه كان حراً فى التعبير عما يجول بخاطره رغم ما قد يترتب على ذلك من متاعب قد يتعرض لها ولم يكن إنساناً سلبياً أو مقهوراً كما يشاع عنه أحياناً .

رابعاً : إن النظام السياسى المصرى قد تأسس على نوع من أنواع العقد الاجتماعى الذى عبرت عنه فكرة " الماعت " ؛ فعلى الرغم من الأصل الإلهى الذى يؤمن به الإنسان المصرى القديم للماعت وكذلك للملك – الفرعون الإله ، إلا أن ذلك لم

يمنع من وجود صيغة ما من صيغ العقد الاجتماعى فى مرحلة ما من مراحل التطور السياسى بين طرفين (الحاكم والمحكوم) . وهذه الصيغة قد اكتسبت قداستها فى واقع الأمر من ارتباط الأخلاق والدين بالسياسة، ذلك الارتباط الذى يمثل حجر الزاوية فى فهم أى جانب من جوانب الحياة اليومية فى مصر القديمة .

إن هذه الصيغة التى تبلورت فى فكرة الماعت كانت الأساس الذى تحقق من خلاله الاستقرار فى الدولة المصرية ؛ فالحاكم يكتسب احترامه وقداسته فى نفس المحكومين من حرصه على تمثل الماعت والحفاظ عليه . والمحكوم ينفذ الأوامر ويؤدى واجباته فى ظل قوانين ونظم تضمن له حقوقه . وعلى ضوء هذا تولدت العدالة الاجتماعية واستقر مفهومها فى المجتمع رغم ما يبدو على السطح من سلطات واسعة أعطيت للملك بحيث يبدو منها وكأنه الحاكم بأمره أو الحاكم المستبد !

ولعل تحليل مضمون أحد نصوص هذه الشكاوى ، وليكن نص شكاوى القروى الفصيح [٩٥] ، يكشف لنا عن هذه الجوانب المهمل

النظر إليها فى الحضاره المصريه القديمة وفى نظامها السياسى ، ويكشف أمامنا فى نفس الوقت صوره النظام السياسى المصرى ومعنى العدالة التى كان يطلبها الشعب من حكامه .

إن قصة القروى الفصيح كتبها أحد أدباء العصر الإهناسى . وقد كتبت لتروى حدثا وقع قبل ذلك بقليل . وتعود أحداثها إلى عصر الملك " نب-كاوو-رع " أحد ملوك أهناسيا فى الأسرة العاشرة (٩٦) .

وبالطبع ينبغى أن نميز بين رواية القصة ، وبين شكاوى القروى الفصيح ؛ فالأخيرة قالها القروى شفاهه وسجلها أحد الكتاب الملكيين . أما القصة التى سبقت الشكاوى التسع للقروى الفصيح فهى من صياغة أحد الأدباء الذين راقهم أسلوب القروى كما راق للملك فروى وقائعها كاملة وأورد الشكاوى بنصها كما سجلت فى السجلات الملكية .

أما المقدمة التى تحكى قصة الشكاوى فتتلخص فى أن قرويـ يدعى " خون أنبو " (٩٧) أحس أن مخازن الغلال فى منزله كادت تفرغ مما فيها ، فاستأذن زوجته فى السفر إلى العاصمة أهناسيـ

للحصول على المزيد من الطعام والغلة التى تكفى أولاده ، وطلب منها أن تعد له ما يكفيه من زاد للطريق وأن تحتفظ لنفسها وللأولاد بالشيء القليل الذى يكفيهم حتى يعود إليهم .

وخرج هذا القروى من قريته " حقل الملح " بالقرب من وادى النطرون يحمل على حميره بعض السلع التى اشتهرت بها قريته والمنطقة التى تحيط بها . وكانت هذه السلع متنوعة ففيها النبات والبذور والأحجار المتنوعة وبعض الأعشاب الطبية والطيور والعطور . وكان على خون أنبو أن يخترق فى طريقه إلى العاصمة ضيعة " رنسى مرو " مدير قصر الفرعون ، وكان أحد عماله ويدعى " جحوتى نخت " فاسدا طماعا . فلما رأى هذا الأخير حمير خون أنبو بمنظرها الخلاب وما عليها من سلع ثمينة متنوعة طمع فيها . ففكر فى حيلة للاستيلاء عليها بشكل يبدو قانونيا أو بعبارة أخرى بطريقة تخدع القروى ويستسلم لها . وقد أمر خادمه بأن يسرع لإحضار بعض قطع من قماش الكتان وأسرع فمدها على الطريق الضيق بين ماء الترعة وحقل القمح . وفوجئ القروى حين وصل إلى هذه النقطة من الطريق بمن يقول له : ابتعد عن القماش

المنشور على الطريق فاحتار القروى أين يتجـــه إذن ! إن جـانبى الطريق هما الترعة وحقل القمح ولم يكن أمامه إلا أن يميل بحمـيره فيسير على الجانب الذى به القمح فهذا هو الطريق الصحيح . فصاح فيه جحوتى نخت : هل سيصبح حقل القمح طريقا لك ؟! فلـم يكـن أمام القروى إلا أن يقول له : " طريقى هو الطريق الصحيح . ولكـن حيث إن الجسر مرتفع والطريق مغطى بالشعير وأنت أيضا تشـغل الطريق بملابسك، ألا يمكنك أن تسمح لنـا بـالمرور علـى هـذا الطريق؟" [٩٨] وبالطبع فقد انتهز الحمار الفرصة التى انشـغل فيـها صاحبه بالكلام وملأ فمه بحزمة من القمح وحينئذ كشـف جحوتـى نخت عن مؤامرته الدنيئة للاستيلاء على حمير القروى بحجة أنه أكل قمحه . وحاول القروى مقاومته قائلا : " هل تستولى على حمـارى لأنه ملأ فمه بحزمة شعير ! ولكننى أعرف سيد هذه الأملاك ، فـهى ملك رئيس الحجاب " رنسى بن ميرو " فهو الذى ذاعت شهرته بأنـه يعاقب كل لص فى هذه البلاد ! فهل يتفق أن أسرق فوق أرضه [٩٩].

ولكن كلام القروى نزل كالصاعقة علـى جحوتـى نخـت ، فاعتدى على خون أنبو وضربه بعصا على جميع أجـزاء جسـده ،

ولما بكى القروى بكاء حارا نظرا لما تعرض له من ظلم ومعانـــاة ، نهره جحوتى وطلب إليه أن يصمت لأنه قريب ، ـــن مقـــر " سـيد الصمت " أى " الإله أوزوريس " (١٠٠) .

وحينئذ بدأت الشكوى وبدأ التمرد الذى أعلنه أنبو علـــى مـــا يتعرض له من ظلم حين قال متعجبا : " واعجبا ، أتضربنى وتسرق ممتلكاتى وتريد أن تغرس الشكوى فى فمى ! أيا " سيد الصمت " رد لى ما أمتلكه حتى أتوقف عن الصراخ فأسبب لك الفزع ! " (١٠١) .

إذن لقد رفض القروى الإذعان والصمت لأنه أحـــس بـــالظلم الشديد الذى وقع عليه والذى لا يجدى معه الصمـــت . فلابـد مـن الشكوى والكلام حتى يعود الحق إلى صاحبـــه ، فـــالصمت ليـس الفضيلة المناسبة هنا ، بل الشكوى والمطالبة برفع الظلم هى الفضيلة التى ينبغى أن يتحلى بها القروى حتى يعود إليه حقه .

وبالفعل فقد اتجه القروى إلى الجنوب ليلتقى رئيس الحجـاب " رنسى بن ميرو " بعد أن ظل عشرة أيام كاملة يتوسل إلى جحوتـــى نخت ليعيد إليه حقه . والطريف أن القروى عندما صادف رنسى بـن

ميرو وهو بعادر منزله متجها إلى سفينته الرسمية بـــادره فـــائلا : " وآه! ليتنى أسعد قلبك بشأن هذه المشكلة التى حدثت لى " (١٠٢) .

فالفروى الفصبح يعتقد أنه حينما سيعرض مشكلته على ممثـــل الحاكم سيسعد قلبه لأنه سيعطيه فرصة ثمينة لبحقق العدالة ، ويفنص من الظالم ويرد الحق إلى المطلوم . وفى هدا دلالة قويـــة علـــى أن تحفيق العدالة وفرص النظام كان درة العفد الاجتماعى – السباســـى بين النظام الملكى الحاكم وبين المواطنين فى مصر القديمة .

إن المضمون الرئيسى الذى نكشف عنـــه الشـــكاوى التســـع للفروى هو ذلك الاعتفاد الدى آمن به الحاكم والمحكوم على السواء ، فالمحكوم يطلبه من الحاكم ، والحاكم يسعد قلبه أن يلبى وأن ينصـــر المظلوم ويعاقب الظالم . إن مضمون الخطاب بكشف عن حال العامة فى ذلك الزمان ومعنفداتهم حول الحكم والعدالة وضـــرورة فـــرض النظام بأخذ حق المظلوم من الطالم . . الح وهو خطاب ينسق نمامـــا مع ما رأيناه من فبل فى خطاب السلطة حيث أن كليهما يركز علـــى نفس الفيم السياسية – الأخلاقية التى ينبغى أن نسود المجتمع بفصـــل رجاحة عفل الحاكم ونشر مظلته الإلهية العادلة على مواطنيه .

ويبدو ذلك واضحا أمامنا حينما نبدأ فى قراءة نص الشكاوى التسعة ؟ فمنذ الشكوى الأولى التى قدمت لرئيس الحجاب يخاطبه فيها القروى باسم العدالة وطلب الإنصاف . وهو يستهل هذه الشكوى بعبارات بليغة بلغت حدا بعيدا من الإعجاز فى اختصار وتكثيف المعانى التى تعبر عن الحكمة الموروثة حول قداسة العدالة ودورها فى تحقيق الأمان للمواطن والخلود والشهرة الأبدية للحاكم أو من يمثله فى السلطة .

ولنتأمل معا فى النص التالى كيف يمتزج احترام القروى الشديد لرئيس الحجاب الذى يمثل السلطة ، بمطالبته التى لا تهتز بضرورة تطبيق العدالة لما يمثله ذلك من خير وتقدم للجميع . يقول الفروى مخاطبا " رنسى بن ميرو فى شكواه الأولى : " إذا نزلت إلى بحيرة العدالة ، من المؤكد أنك ستبحر فيها مع ريح مواتية . ولن يقتلع شراعك ، ولن تتقدم سفينتك ببطء ، ولن يصيب ساريتك ضرر، ولن تتكسر عوارض السوارى . . ولن تجرفك المياه ولن تعانى من مشاق النهر ولن تشاهد وجوها مرعبة . بيد أن الأسماك ستتجه إليك وقد فزعت بسرعة وسوف تصطاد الطيور السمينة لأنك أب لليتيم

وزوج للأرملة وأخ للمطلقة ، ومئزر لمن فقد أمه . . . أيها المرشد الخالى من كل حسد ، الرجل العظيم المجرد من الشراسة، الذى يقضى على الكذب ويوقظ الحقيقة تعال على صوت من يتحدث إليه وأجهز على الشر . . . أقم العدالة أيها الرجل الممدوح الذى يمتدحه الذين يمدحون. لطرد ضيقى ، لاحط أننى أرزح بحب وطأة حزنى . لقد وهنت بسببه[١٠٣] .

وقد استمع كبير الحجاب إلى الشكوى وسرعان ما نقلها إلى جلالة الملك " نب – كاو – رع " فسارع الملك بدوره نتيجة إعجابه ببلاغة هذا القروى وحبه الشديد لتطبيق العدالة ، سارع بإصدار توجيهاته إلى كبير الحجاب بأن يلزم الصمت حتى يستمر الفروى ببلاغته المعهودة فى شكواه ويستمر كبير الحجاب فى إبلاغ الملك بها كتابة حتى يمكنه الاستمتاع ببلاغة القروى وفصاحته فى التعبير عن هذه المضامين الرائعة لمفهوم العدالة ودور السلطة فى تحقيقها من جانب ، ومن جانب آخر فإنه ربما أراد من وراء ذلك أن يحس بنبض الشعب ويعرف ما يعانيه الناس فى ظل حكمه من خلال شكاوى هذا القروى البسيط لعل فيها ما يتناقض مع ما ينقل إليه من تقارير رسمية ينقلها المسئولون والحجاب والوزير . وفى اعتقادنا أن

اشتياق الملك إلى معرفة واقع الحال الذى يعيشه عامة الناس كان العامل المباشر وراء طلبه أن يستمر الشاكى فى تقديم شكواه على أن يبلغ هو بها مكتوبة . ولعل ما يؤكد صحة اعتقادنا هذا أن الملك كان قد اقتنع منذ اللحظة الأولى التى استمع فيها إلى الشكوى الأولى للقروى بعدالة قضيته . وقد عبر عن ذلك قوله لرنسى بن ميرو : " أمن سبل العيش لزوجة القروى وأولاده ، وله شخصيا ، لأنه حينما يشد أحد هؤلاء الفلاحين الرحال فما ذلك إلا لأن منزله خاو حتى الأرض " (١٠٤) .

لقد برهن الملك بذلك على اهتمامه الشديد بأحوال رعاياه ومعرفته بأدق تفاصيل حياتهم وأنه إنما يريد معرفة المزيد منها من خلال الاستماع لشكاوى هذا القروى لصراحته الشديدة وقدرته على التعبير الفصيح عما يجول بخاطره .

لقد أصدر الملك توجيهاته فى ذات الوقت بأن يتولى رنسى تدبير حياة أسرة القروى بإرسال المعونات الغذائية إليهم دون أن يعلم القروى شيئا عن ذلك ، وأن يوفر له أيضا الغذاء المناسب والإقامة المناسبة بدون أن يعرف أن هذا الطعام من كبير الحجاب حتى لا

يتأثر بذلك فى بث شكواه ، وحتى يستمر فى عرضها مع إحساسه بالظلم وعدم الاهتمام !

وقد بدا أثر ذلك بوضوح فى الشكاوى التالية للقروى حيث بدأ فى التعبير عن إحساسه بالظلم من عدم الاستماع إليه وعدم الإسراع من قبل رئيس الحجاب فى تطبيق العدالة ؛ وبعد أن كان بمدحه مطالبا إياه بتطبيق العدالة بصورة إيجابية تخلو من التحريح والنقد ، بدأ يمزج مديحه إياه بالغضب منه لعدم الإسراع فى تطبيق العدالة ، وأخذ يوضح له النتائج السيئة المترتبة على عدم تطبيق العدالة ؛ لقد انتقل من المدح إلى النقد ، ومن تقريظ للعادل والعدالة ، إلى تجريح للسلطة لعدم تطبيقها العدالة ، وإلى تعديد لصور العدالة الضائعة على يد من يجب عليهم أن يكونوا رسلا للعدالة ومحافظين عليها ! وهاهو يقول معبرا عن ذلك بعبارته البليغة الواضحة :

" أليس من الأمور السيئة أن يميل الميزان ، وأن تتحرف وزنة الرصاص ، وأن يصبح الرجل الدقيق العادل شخصا مشوشا ؟! انظر ، إن الحقيقة والعدالة قد طردتا من مكانها فى ظلك والشخصيات البارزة ترتكب الإثم ، واستقامة القول طرحت جانبا ،

والقصاة يسرقون ، ومن كان عليه أن يمسك من يخادع يرتكب المخالفات التى من واجبه الوقوف ضدها . من كان عليه أن يمنح النسمة هو ذاته محروم منها ، ومن كان عليه أن ينعش ، يجعل القوم يلهثون . ومن كان عليه أن يقسم قسمة عادلة هو لص . ومن كان عليه أن يطرد الحاجة هو الذى بتسبب فى وجودها والمدينة محاصرة بأمواجها . ومن كان عليه أن يطرد الأفعال السيئة هو الذى يرتكب الشر " (١٠٥) .

والجدير بالملاحظة أنه حينما تدخل رنسى بن ميرو رئيس الحجاب وجه كلاما مستفزا لهذا القروى بقوله : " هل ما يجثم على قلبك هو بالنسبة لك أهم من المجازفة بأن يمسك بك أحد خدامى ؟ " (١٠٦) ، فإن القروى يصر على أن يواصل كلامه كاشفا عن صور أكثر للفساد الذى يعانى منه الناس دون أن يعبأ بهذا التهديد حيث يضيف قائلا : " إن من يكيل أكوام الحبوب بغش لصالحه ، ومن يملأ مخزن غلال الغير لا يكيل بالقسطاس أملاك هذا الأخير ، ومن كان عليه أن يشرف على تطبيق القوانين يأمر بالسرقة ! من إذن سيعاقب الأعمال الشائنة إن كان الذى عليه أن يدرأ الظلم يرتكب هو

ذاته المخالفات . . . ما عساك تقول بشأنك ؟ العقاب لا يدوم سوى لحظة ولكن الشر يدوم طويلا . . . " (١٠٧) .

وقد انتقل القروى فى شكواه من تعديد صور الفساد وعدم تطبيق العدالة خاصة لدى من ينبغى عليهم تطبيقها ، إلى النقد المباشر لرنسى بن ميرو نفسه . ولنتأمل فى النص التالى مدى جرأة القروى الشديدة فى نقد هذا السيد المتغطرس الذى لم يأمر برد الحق إلى صاحبه . يقول القروى مضيفا إلى ما سبق وموجها كلامه إلى رنسى بن ميرو : " إنك رجل قوى وشديد البأس ، ساعدك متفوق ولكن قلبك طماع . وتمر الرحمة من فوقك . . . من عنده ممتلكات عليه أن يكون حليما . السرقة أمر طبيعى بالنسبة لمن لا يملك شيئا ، وأيضا سلب الممتلكات بالنسبة لسجين . وهو أمر يستوجب العقاب لمن لا ينقصه شىء . ولكن لا ينبغى أن نأخذ الفقير على ذلك فهو يبحث فقط عما يسد رمقه . " كن إذن مأوى وليكن شاطئك سالما لأن المدينة محاطة الآن بالتماسيح . وليكن لسانك صارما ولا تضل فقد يكون جزء من جسد الإنسان ثعبانا له . لا تتفوه بالكذب . . . " (١٠٨) وهو يستطرد فى الشكوى الثالثة مؤكدا نفس المعانى : " عاقب

اللص. ساعد الرجل المسكين لا تصبح الموجة التى تقف فى وجه من يتوسل . احذر حفيفة أن الأبدية تعترب ولتكن أمنيتك أن تحيا طويلا عملا بهذه الحكمة " إقامة العدل هى نسمة فتحة الأنف " عاقب من يستحق العقاب . . . إن توازن البلاد قائم على تحقيق العدالة ، لا تتفوه بالكذب ، لأنك شخص له شأنه . . . لا تتفوه بالكذب لأن عليك أن تكون ميزانا ولا تكن مشوشا لأن عليك أن تلتزم بالاستقامة . . . على لسانك أن يكون ثقالة الميزان ، وقلبك هو وزنه ، وشفتاك هما ذراعاه ، إذا أشحت بوجهك عن الرجل العنيف فمن إذن سيعاقب الشر ؟ " (١٠٩) .

ويبدو أن رنسى بن ميرو قد ضاق من جرأة الفلاح القروى أو ربما أراد استفزازه أكثر وأكثر فأمر اثنين من حراسه أن ينهضوا حاملين سوطين وأوسعاه ضربا فى كل أجزاء جسده . فما كان من القروى إلا أن ازداد جرأة فى نقده قائلا له : " ما فئ بن ميرو فى ضلال ، لا زال وجهه بتعامى عما يرى ، وأصم لما يسمع ، بل نساء لما نذكره به " (١١٠) . وأخذ فى توبيخه بتشبيهات تصب كلها فى إطار ما يترتب على غباب العدالة حينما يتجسد فى شخص يمثل

السلطة ، فحينئذ يكون هذا الشخص " أشبه بمدينة بلا حاكم ، أشبه بفرقة بلا قائد ، أشبه بسفينة بلا ربان ، أشبه بجماعة من الناس بلا مرشد ، أشبه بشرطى يسرق ، بحاكم يسلب ، بمدير منطقة إدارية عليه أن يعاقب أعمال السلب وصار نموذجا لمن يعمل الشر " (١١١)

لقد شخص القروى فى هذا النص البديع أهمية العدالة فى الدولة ، وأهمية أن يكون ممثل السلطة التنفيذية عادلا وحريصا على تطبيق العدالة ؛ فالعدل أساس النظام وبدونه تنقلب الأمور إلى فوضى ويقوم كل واحد باستغلال وظيفته فى عكس ما ينبغى أن يقوم به من أعمال لخدمة العدالة والنظام .

وقد واصل القروى فى شكاواه النالية إفراغ قلبه من كل ما به من ألم وإحساس بالظلم وقدم للمسئول كل ما يمكنه تقديمه من صور قذرة لغياب العدالة إذا لم تجد من راعيها الإنصات والأمر بالتنفيذ والتطبيق على كل ظالم أو سارق . ولما لم يجد أذنا صاغية للتحقيق فى شكواه أو فى الاستماع إلى كلامه عن الظلم الذى وقع عليه بدأ يعود إلى لهجة الاستعطاف مرة أخرى ، وبدأ يعبر فى خطابه عن المبادئ العامة للعدالة التى ينبغى أن يتحلى بها المسئول عن تطبيق

العدالة ، وبالجزاء الطيب والسعادة الأبدية التى ستكون من نصيبه إذا التزم جانب العدل وحققه على ظهر الأرض . إن هذه العمومية فى الخطاب والشمولية فى تقدير العواقب الأخروية لتطبيق العدالة فى الحياة الدنيا نجدها فى ختام الشكوى الثامنة حيث يقول الفروى لرئيس الحجاب :

" أقم العدل من أجل سيد العدالة الذى يقيم عدالته الخاصة . إنك أنت القلم وقرطاس البردى ولوحة الكتابة ، أنت تحوت [١١٢] فتجنب اقتراف الشر ، الخير طيب عندما يكون سعيدا ، العدالة تدوم إلى الأبد . إنها تهبط إلى الجبانة مع من يقيمها عندما يدفن ، تحت الأرض معه ولكن لن يمحى اسمه من على الأرض . سوف تدوم ذكراه بسبب ما قدمه من خير . تلك هى القاعدة الخاصة بكلام الإله " [١١٣] .

وفى ختام الشكوى التاسعة والأخيرة نجد أيضا نفس هذه النظرة الشمولية لتقدير قيمة العدالة حينما يقول القروى الفصيح : " لا وجود للبارحة بالنسبة لإنسان لا عمل له ، ولا صديق للإنسان الذى يصم أذنيه عن العدالة ، ولا أيام سعيدة هناك للإنسان الشره " [١١٤] .

لقد جمع القروى فى هذا الحمام البليغ الماضى والحاضر والمستقبل بالنسبة للإنسان غير العادل فى عبارة واحدة ؛ فلا ماضى لمن لا يعمل بموجب العدالة حيث لن يذكر له أحد أى أفعال طيبة ماضية ولا صديق له فى حاضره لأن الصداقة الحق ينبغى أن تكون بين أناس عادلين يحرصون على العدالة مع النفس ومع الغير، وكذلك فلا مستقبل لمثل هذا الإنسان الذى فقد القدرة على الفعل العادل فى الماضى والحاضر ، هذا إذا قيس المستقبل بمعيار الماضى والحاضر، حيث إن السعادة فى مستقبل الأيام تقاس على ما قدمه الإنسان فى ماضيه وحاضره ، ولعل القروى يقصد هنا ليس السعادة الدنيوية ، بل أيضا السعادة الأخروية . فالشرير لن يعيش حياة سعيدة حقيقية لا فى الدنيا ولا فى العالم الآخر فهو مكروه من الناس فى دنياه ، وسيلقى العقاب الصارم فى حياته الأخرى !

وقد توقف يان آسمان كثيرا أمام هذا النص البليغ من شكاوى القروى الفصيح ، وأعاد تحليله ليقدم من خلاله النظرية المصرية القديمة الكاملة للماعت . إن النص يقول كما ترجمه آسمان وكما

عبرت عنه الترجمة العربية " لا أمس للبليد، لا صديق لمن لا ينصت للماعت ، لا أعباد للجشع " (١١٥) .

وينظر آسمان إليه على أنه تلخيص بليغ للعناصر المضادة للماعت ، وهى ثلاثة " الجمود " و " فقدان الحس " و " الجشع " والبلادة أو الجمود وهى العيب الرئيسى الذى يأخذه القروى على رئيس الحجاب . . والقضية المطروحة فى الشكاوى إذا تجاوزنا عن المقدمة هى قضية عدم السعى والتجاهل الذى يقوم به المسئول تجاه الشكوى وهى التماس أو فعل يقوم به القروى . وبالطبع فلابد من وجود سلسلة متشابكة من الأفعال ، ففعل الشكوى يقتضى من الرئيس التحقيق فيه وعدم تجاهله لكن الجمود والتجاهل الذى حدث منه قطع الصلة بين الفعل ونتائجه ، أى قطع الصلة بين الشكوى والنتائج التى كان ينبغى أن تترتب عليها ، وهذا يؤدى بالضرورة إلى فقدان الحس الاجتماعى ومن ثم إلى تفكك المجتمع . ولقد كان المجتمع المصرى- حكاما كما يبدو فى تعاليم أمنمحات الأول الذى يرى ضرورة "السعى المتبادل " وأن يفكر المرء فى الآخرين ، ومحكومين كما يبدو فى شكاوى القروى الفصيح الذى يقول " اسع من أجل من سعى لأجلك " -

كان المجتمع المصرى يؤمن بضرورة السعى المتبادل . وهذا السعى المتبادل ليس إلا " الماعت " وقد ورد فى تعريف " الماعت " نص يرجع – فيما يقول آسمان – إلى عصر الملك نفرحنب من الأسرة الثالثة عشرة . يقول النص " المكافأة لمن يسعى هى أننا نسعى من أجله . هذه هى الماعت فى قلب الإله (أى طبقا لرأى الإله) [١١٦] .

إن الماعت إذن هى نتاج السعى المتبادل الذى يربط بين الأمس والغد وبتجاوز الحاضر ويضمن الثقة والنجاح لأن الماعت لم تتواجد تلقائيا ولكنها وظيفة من وظائف الذاكرة الاجتماعية .

أما العنصر الثانى من العناصر الثلاثة المضادة للماعت فهو عنصر "فقدان الحس" وهو المتمثل فى عدم الإنصات للماعت . وحسب رؤية آسمان ، فمثلما كانت البلادة مقابلة للسعى ، فالصمم هنا مقابل للسمع أى اللغة ؛ فعلى حين يربط الجزء الأول من مقولة الفروى بين السعى والأمس أى البعد الزمنى ، فإن الجزء الثانى يربط بين اللغة والصداقة أى البعد الاجتماعى حيث يبتعد البليد عن الأمس مثلما يبتعد الأصم عن الآخرين . كلاهما يقطعان صلة التضامن مع الآخرين ؛ يقطع البليد تواصل السعى بينما يقطع الأصم

تواصل الاتصال وينقلنا من مجال الفعل إلى مجال اللغة ؛ فإن ما كان " مكافأة " فى مجال " الفعل " يصبح اتصال وود متبادل فى مجال الحديث . ومن الواضح أن الفعل واللغة هما مفومات الماعت الرئيسية ويقابلان – فيما يقول آسمان – " البر " و " الصدق " ، البر هو الماعت التى نفعلها حينما نسعى ، أما الصدق فهو الماعت التى نقولها حينما نتصل بالآخرين [١١٧] .

ولقد أفاض آسمان فى بيان كيف أن الاستماع والصمت كفضيلة من الفضائل الهامة فى التراث المصرى القديم لم تكن غاية فى ذاتها بل كانت وسيلة لفضيلة أهم وأسمى هى فضيلة حب الآخرين ؛ فالإخلاص فى الاستماع إلى ما يقولونه يعنى حتما أننا سنقول وسنتصل بهم عبر فهم جيد لما قالوا . إن هناك ارتباطا ضروريا فى الفكر المصرى القديم بين " الماعت " التى " نفال " و " الماعت " التى " تفعل " إنها الماعت الاتصالية القابلة للتبادل على حد تعبير آسمان [١١٨] ، إن " الماعت " هى الحديث الذى يؤدى إلى التضامن الذى بواسطته نندمج مع الآخرين . والحديث الذى يؤدى إلى التضامن هو الحديث الذى بواسطته نحيا وهذا الحديث (أو

الخطاب) لا يظهر بهذا الشكل التضامنى – الاجتماعى إلا حينما نحسن الاستماع والإنصات . وفى هذا الإطار لأهمية " القول " و " الفعل " المطابق للقول يجب أن نفهم خطاب الشكوى لدى القروى الفصيح فهو لا يقول لمجرد القول . بل كان يبث شكواه مفترضا أنها ستجد الآذان الصاغية التى تحسن الاستماع ، وستجد العقل الذى يقدر المعنى الذى تبثه الكلمات فيأمر بتحقيق العدالة وإعطاء الحق لصاحبه ومعاقبة المسيء .

والجدير بالانتباه هنا أن نلاحظ أن ذلك قد حدث فى قصة القروى الفصيح حيث إن تظاهر رنسى بن مير بالبلادة وعدم الإنصات كان تنفيذا لأمر ملكى . لكن الواقع أنه أحسن الاستماع إلى هذه الشكاوى من بدايتها إلى نهايتها ونقلها للملك وأمر برد الظلم عن القروى وجرد الظالم من كل ثروته وأملاكه هو ورجاله الذين اشتركوا معه فى جريمته ضد القروى (١١٩) .

وإذا ما عدنا مرة أخرى إلى تحليل إسمان للنص السابق ، سنجد أن العنصر الثالث المضاد للماعت هو " الجشع " والجشع عند المصريين صفة متصلة بالقلب حيث إن التعبير المصرى عون – إب

مكون من كلمة " جشع " و " قلب " ويعنى حرفيا فيما يقول آسمان " جشع القلب " [١٢٠] ولذلك فإنه إذا كنا قد تناولنا السعى والكلام والاسنماع كوسائل يتصل بها الفرد مع الآخرين ويندمج معهم ، فإن "الجشع" هنا وسيلة ينكفئ بها الفرد على نفسه ، فلا يعد بإمكانه أن يحتفل لأن الاحتفال معناه الإنفاق والاتصال بالآخرين الذين سيشاركونه الاحتفال .

وقد دلل آسمان على ارتباط الجشع عند المصريين بالأنانية ورفض الاندماج الاجتماعى ، وعلى التقابل لديهم بين الجشع والماعت بنص للمفكر المصرى العظيم بتاح حوتب قال فيه " إذا أردت أن يمتاز سلوكك ، فابتعد عن الشر أيا كان ، احذر من الجشع لأنه مرض خطير ومستعصى ولا يجعل مكانا للألفة . إنه يحط من شأن الآباء والأمهات والأخوة من أم واحدة . ويعطى مرارة لحلاوة الصداقة ، ويبعد السيد عن صديقه ، ويفرق بين الروج وزوجته ، إنه خلاصة كل ما هو سيئ ويحيط بكل ما يدعو للتأنيب . أما من يتكيف مع الماعت فإنه يدوم وينطلق طبقا لخطواتها . وبفضل ذلك يترك وصية . أما الجشع فلا قبر له " [١٢١] .

ولا شك أننا بعد أن نقرأ هذا النص وغيره من النصوص المصرية القديمة خاصة مفولة القروى الفصيح " لا أعباد للجشع " ، ندرك أن قوام السعادة عند الإنسان المصرى بكون فى الاتصال بالآخرين والاندماج معهم على أساس من "الماعت" . ولا مكان لأنانى لا يستمع إلى الآحرين ولا يفعل ما اتفق علبه بين الجميع داخل هذا المجتمع . ومن ثم فلا بمكن أن يشعر بالسعادة أو يحتفل بعيد ذلك الإنسان الذى رضى بعزلته فتمزقت نفسه بانكفائها على ذاتها ، ولم تعد قادرة على أن تحبا حياة السعادة التى فوامها " الماعت " الذى يظلل حياة الجميع حكاما ومحكومين .

وعلى أى حال ، فقد ركز خطاب الشكوى للقروى الفصيح على بيان الجوانب السلبية لعدم تطبيق العدالة ، وبالطبع فإن المعرفة النظرية بهذه الجوانب السلبية يعقبه مخاولة تلافى هذه الجوانب من قبل المسئولين . وتلافى هذه الجوانب السلبية يعنى تلقائيا تحقق العدالة فى صورتها المثالية التى يستهدفها خطاب الشاكى. وإذا ما حدث ذلك – كما حدث بالفعل – فقد حدث التلاقى والاتصال بين الشعب والحاكم فى الأمانى (المعبر عنها فى الأقوال) وفى الأفعال . وهذا التساوق بين القول والفعل هو جوهر نظرية " الماعت " فى مصر القديمة .